المحاضرة الأولى : نزعة التمرد في شعر الصعاليك

ليست ظاهرة التمرد على النظام وليدة زمن دون آخر فقد عرفها العرب في جاهليتهم على يد بعض الصعاليك الذين خلعوا النظام القبلي بوجه من الوجوه وخرجوا على تلك النظم.

فظاهرة التمرد هي ظاهرة اجتماعية في العصر الجاهلي فرضتها طبيعة الحياة، وما خلفته من فوارق طبقية في المجتمع الجاهلي، فقطع المتمردون الصلة بقبائلهم من نواحٍ متعددة: اقتصادية، اجتماعية، سياسية.

مفهوم التمرد:

جاء مفهوم التمرد في لسان العرب وهو: <<المارد؛ العاتي، مرد على الأمر، تمرد مرودا ومرادة، فهو مارد، ومريد، وتمرد: أقبل وعبا،..

واقل ابن الاعرابي: المرد: التطاول بالكبر والمعاصي، ومرد على الشر أي: عتا وطغى[1].

وجاء في القاموس المحيط في معنى <<مرد: مرودا ومرودة، ومرادة فهو مارد ومريد، ومتمرد أقدم وعتا، أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف، ومردة ومرداء، ومردة: قطعه ومزق عرضه.. والمارد المرتفع والعاتي>>[2].

ومن خلال هذا المفهوم يتجلى أن التمرد هو الخروج والعتوة والقوة والعصيان.

وأما اصطلاحا: رفض قاطع لتعد لا يطاق إلى يقين مبهم بوجود حق صالح>>[3].

فظاهرة التمرد التي فرضتها الطبيعة الجاهلية على بعض الأفراد، ويمكن أن حددها في:

1-الطبقية الاجتماعية.

2-الجنس والعرق واللون.

---

[1]ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص49.

[2]الفيروز أبادي – القاموس المحيط، الهيئة العربية للكتاب دط، دت، ج1، 335.

[3]أليركامي، الانسان المتمرد، تر، نهاد رضا، منشورات عديدات، بيروت، ط3، 1983، ص198.

مفهوم الصعلكة

جاء مفهوم الصعلكة في لسان العرب يتصل معنى (ص ع ل ك) الصعلوك الفقير الذي لا حال له وزاد الأزهري ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك، قال حاتم الطائي:

غنينا زمانا بالتصعلك والغني فكلا سقاناه بكأسهما الدهر

وتصعلكت الإبل، خرجت أوبارها، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[4].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: <<أما معاوية فصعلوك لا مال له[5]>>

فقد ارتبط مفهوم الصلعة بالفقر والحاجة مع التمرد والخروج.

أما في الاصطلاح:

يقول يوسف خليف: <<فمن الواضع أن الصعاليك هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم، وانما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الحليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء فالكلمة خرجت من الدائرة اللغوية، دائرة الفقر إلى دائرة أخرى منها دائرة الغزو والإغارة والنهب والسلب[6].

والصعلكة ليست مبنية على النهب أو بدافع الفقر فقط يقول أحمد الحوفي<<ولكن الصعاليك ليسوا فقراء فحسب، فهم يدركون ما بينهم وبين الأغنياء، من فوارق في النعمى والبؤس، فمعظمهم خلاء

---

[4]ابن منظور لسان العرب، ج10، ص456.

[5]مسلم– الصحيح، ج4، ص134.

[6]يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، دار المعارف، القاهرة، ط3، دت، ص26–27.

أيديهم ومعجز، .... وسوء حظهم، ثم هم تواقون إلى أن يحيوا حياة أرقى مما يحيون، فإذا لهذا كله يثورون على النظام المالي[7].

فالصعاليك جمعت بينهم الحاجة، فخرجوا على قبائلهم وأنكرهم قومهم: <<إن قصيد هؤلاء كان مثالا قويا لشخصيا هم وسلوكه لا يكتمون منه شيئا، ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصرف والصرافة والقوة وظهرت هذه الصفات في فنهم، الذي يعتز بالشخصية الفردية وهو شأن الشعر الغنائي الصحيح، فقد ترددت في أشعارهم جميعا صيحات الفقر والجوع، وهاجت أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشجاء>>[8].

طبقات الصعاليك:

إن المتتبع لظاهرة الصعلكة التي تقوم على النهب والسلب ورفض القيم الاجتماعية فرضتها الحياة القبلية سيجد أنها وليدة مجموعة من الصعاليك اختلفت أصنافهم كما اشتركت فيهم حب التمرد وهذه الطبقات يمكن أن نحددها في:

1-مجموعة الخلعاء والشذاء:

وهم الذين أنكرتهم قبائلهم، وتبرأت منهم وطردتهم من حماها وقطعت ما بينها، وبينهم من ملكة وتحللت بهذا العقد الاجتماعي الذي يربط بينهما وبينهم[9].

فمن خلال هذا التعريف يتجلى لنا بعض الأحكام القبلية وتصرفها مع من يخرج عن نظامها وقانونها ومن هؤلاء: حاجز الأزدي، أبي الطمحان القيني.

2-مجموعة الأغربة:

[7]أحمد الحوفي، الحياة العربية في العصر الجاهلي، مكتبة نهض مصر القاهرة، ج19، ص231.

[8]عمر عروة، حياة العرب الأدبية، دار المدي، وزارة الثقافة، 2008، ص129-130.

[9]احسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1972، ص200.

حدد يوسف خليف هذا الصنف بقوله: <<السود الذين تسرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم أباءهم العرب، ولم ينسبوهم إليها لأن دماءهم ليست عربية خالصة، وإنما خالطتها دماء أحشية سوداء لا تصل من درجة نقائها الى درجة الدم العربي مثل قابط شرا والشفري والسليكبن السلكة>>[10].

3-الفقراء المتمردون:

وهم الذين يصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلفة التي تسود المجتمع الجاهلي، ويمثلهم عروة بن الورد، ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هديل[11].

فهذه المجموعات الثلاث هي التي تألفت منها مجموعة الصعاليك <<وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات، وانطلقت الى الصحراء كما تنطلق الذئاب الجائعة لتنشق لنفسها طريقا في الحياة، وقد جمع بينها على اختلاف قبائلها، الفقر، والتشرد، والتمرد، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي فرضت عليه والايمان بأن الحق للقوة وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع[12].

الأسباب والدوافع لظهور نزعة الصعلكة:

1-الفقر: عانى الشعراء الصعاليك من الفقر حتى غلب على موضوعات شعرهم وصبغها بلون التبرم والشكوى، فلا يخلوا شعرهم من ذكر الاملاق والعسر وضيق اليد، ويذكر عروة ما يعانيه وأصحابه الفقراء من الجوع ويدعوهم للإغارة وتغيير حياتهم بالقوة إذ يقول:

إذ المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه

[10]يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي 58.

[11]المرجع نفسه، ص، ن.

[12]المرجع نفسه ص، ن.

فالمرق خير للفتى من حياته ومن مولى تدب عقاربه[13]

والحاجة عند الصعاليك هي من دعتهم إلى النهب والإغارة سرا لحاجتهم وعدم تواكلهم وخمولهم رضى حياة قاسية بائسة <<لم يكن الصعاليك سوى فئة من فقراء والقبائل المختلفة عبرت بانسلاخها عن واقعين اثنين لهما دلالة واحدة عبرت أولا عن خروجها عن الانتماء والذي يلزمها الالتصاق بحياة القبلية والانقياد لأوضاعها وأعرافها، وعبرت ثانيا عن حاجة مادية لم تستطع احتمالها في ظل القبيلة>>[14].

2.الخلع: والخلعاء هم مجموعة من الخارجين على تقاليد القبيلة الجاهلية وأعرافها فبذتهم قبائلهم، وهذا ما يصور تقسيم المجتمع الى طبقات:

–الطبقة الأولى: السادة وأبناء السادة.

–الطبقة الثانية: الخلعاء والموالي.

–الطبقة الثالثة: العبيد وهم أدنى الطبقات الاجتماعية.

ومن صور التمرد والخلع فعل الشنفري استنكارا على قومة بني سلامان لها السعيدوة إذ يقول:

حزينا سلامان بن مفرج قرضها لما قدمت أيديهم وأزلت

شفينا بعيد الله بعض غليظا وعوف لدى المعدى أو ان استهلت[15]

يقول حسين عطوان، تأبط شرا والشنفرى، وسليك جمع بينهم الجوع والضياع والتشرد والتمرد والثورة على المجتمع، ومضوا يحققون وجودهم في مجتمع لم يعترف بهم[16].

3–بنية المجتمع:

كما أشرت سابقا إلى النظام الطبقي في المجتمع الجاهلي وما ينتج عليه من تفريق في المكانة والحياة الاجتماعية، فتظهر تلك الفوارق بين أفراد القبيلة.

---

[13]عروة بن الورد، الديوان ص48.

[14]حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية، دار الفرابي، بيروت، 1979، ص209.

[15]الشنفري، الديوان، ص37.

[16]حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف، هر1970، ص120.

–ان طالقة الشعراء الصعاليك التي ظهرت في العصر السابق للإسلام كانت تلتقي حالة مهمة في حياة العرب، وهي حالة "فقد الإحساس بالعصبية القبلية، ولأن كل قبيلة كانت القوم على ايمان افرادها بوحدة قبيلتهم كونها الكيان الاجتماعي الذي يلتقي عنده هؤلاء الأفراد. فقد الفصل عنها خلعتها منها، أو شد عنها، بينما كان إيمان كل أفراد القبيلة بنقاء جنسها ودعاة لوجود أغربتها"[17].

ويشير إحسان سركيس أن سبب ظهور الصعاليك في العصر السابق للإسلام إلى عدم إدراك قبائلهم وأهاليهم ونفسياتهم الذي أدى إلى نفورهم منهم وخروجهم على طاعة مجتمعهم[18].

ولعلنا نذكر أسبابا أخرى ويجملها في:

1–الفساد الاقتصادي الذي دعا إلى التمييز بين أفراد القبيلة في الحياة.

2–طبيعة الأرض فالحياة في الجزيرة العربية تعرف بقساوتها وقلة أمطارها.

3–التمتع بالحياة التي تشوبها المخاطر.

ولعل هذه الأسباب وغيرها كانت كدوافع لتمرد الصعاليك على المجتمع وقوانينه لما يحتويه من ظلم واضطهاد وطبقية.

–كما تبقى هذه الفئة –أي الصعالية– لها بصمة خاصة في الحياة العربية، فليس كما يتصوره البعض أنها حياة مستقرة رغم ما فيها من طبقة واستعباد ونهب للحقوق.

وقد ساهمت هذه المجموعة مرة أخرى في إثراء الأدب –الشعر– بوجود نظام أو قاموس خاص. بها يحدد غايتهم ودوافعهم للصعلكة ووجود بصمة مستوحاة من نبذ الظلم والاضطهاد والفقر والجوع.

صور التمرد في شعر الصعاليك –الخصاص الجمالية–

[17]المرجع نفسه، ص33.

[18]ضياء غني لفته، البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الجامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص33–34.

إن القصيدة الشعرية التي جاءت على لسان الصعاليك كانت قائمة على معنى محدد أساسه التمرد والسطو والإيثار، فقد تجاوزت بعض القيم كفقدانهم شفقة الأبوة والانتماء، وبذلك تتخطى الصعلكة معاني الاستهجان إلى معان سامية عمدتها البقاء للأقوى.

وسنذكر بعض الصور التي تجسد حس التمرد على الشعراء الصعاليك.

1/التمرد على شكل القصيدة وبنائها:

ظهر تمرد الصعاليك وتخلصهم من المقدمات الطللية لانشغالهم بأوضاعهم الاقتصادية وحياتهم الخاصة. وما يشوبها من فقر وجوع واضطهاد وظلم فليس همهم الشكل العام للقصيدة فقد كانت ثورتهم عامة لامست الأدب أيضا، ومن الأمثلة نذكر تمرد الشنفري في لاميته إذ يقول:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأصيل

فقد خمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرجل[19]

فقد استهل الشاعر هذه اللامية بالشكوى واليأس من بني أهله مستعيضا عنهم بالذئاب والوحوش التي ألفته وألفها، ويرى أن في الأرض متسعا لمن ضاق بكراهية الأهل وسوء معاشرتهم موفور الكرامة سالما من الأذى.

كما نجد أبو خراش يرثي أخاه عمرو بن مرة واخوته اذ يقول:

لعمري لقد رعت أميمة طلعتي وإن ثواني عندها لقليل

تقول أراه بعد عروة لاهيا وذلك رزء لو علمت جليل

لا تحسبي أي تناسيت عهده ولكن صبري يا أميم جميل[20]

2–التمرد الاجتماعي:

[19]علي الحلبي، شرح شعر الشنفري، ص62.

[20]الحسن السكري، شرح أشعار الهذليين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ص1189.

عاش الشاعر الصعلوك في مجتمع تعسفي يقوم على الظلم والاستعباد، وهذا ما حملهم على السخط عليه وتمردهم على كثير من أعرافه وتقاليده، اجتماعيا واقتصاديا ولذلك يقول عروة بن الورد مبينا صلابة الرابطة بينه وبين رفقائه الصعاليك مقابل التخلي على أهله وقوله:

وسائلة أين الرحيل؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

مذاهبه أن الفجاج عريضة إذا ضن عنه بالفعال أقاربه[21]

ويقول السليك مبينا تمرده على الحياة الاجتماعية وأعرافها

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف[22]

3–التمرد على السلطة:

ظهر التمرد على القوانين والاحكام القبلية لدى الصعاليك في شعرهم لنبذهم تلك الاحكام الجائرة التي تؤمن بالطبقية يقول الشنفري:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى فيها المزخاف القلي منعزل

ولي دونكم: سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[23]

وأما بخصوص العصر الأموي فقد ارتبط ظهورهم بظهور الأحزاب السياسية للدولة الأموية، كالعلويين والخوارج، وتكديس المال لدى بعض الحلفاء والأمراء شبه وراثي، نذكر موقف عبد الله بن الحجاج الثعلبي، إذ خرج مع عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان، فلما قضى عبد الملك على عمرو لم يستسلم عبد الله ولا استكان، ولا فقد الأمل في الإطاحة بعيد الملك بل ظل يتلمس السبيل إلى الخلاص منه، وإذا هو ينضم إلى نجدة بن عامر الخارجي، ويساهم معه في مقاتلة جيوش عبد الملك ولا

[21]عروة بن الورد، الديوان ص48.

[22]سليك في الديوان، دار العالمية، لبنان ط1، 1993، ص94.

[23]علي: شرح شعر الشنفري، ص64.

ينتصر عليها، بل يتقهقر أمامها، وحينئذ يهرب عبد الله وتضيق الأرض عليه من شدة طلب عبد الملك له، يقول مصورا خوفه وفزعه:

رأيت بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطرود كفة حابل

تؤدي إليه أن كل ثنية تيمها ترمي إليه بقائل[24]

كما تبقى ظاهرة الصعلكة أحد الظواهر التي عرفتها البيئة العربية قبل وبعد الإسلام محاربة للفقر متمردة على النظم والقوانين الفاسدة كما جاءت بصورة جديدة للشعر العربي تشرح حياة الصعاليك وطبيعة تعاملهم مع أهليهم وأقوامهم، بصورة جديدة وبثوب جديد.

[24] المرجع نفسه ص ن

المحاضرة الثانية :أثر الإسلام في الشعر العربي القديم

لم يكن الإسلام بعيدا عمّا يدور في السّاحة الأدبيّة من شعر وأدب , إ لا أنّ الاشتغال بدعوة النّاس وإرشادهم لهذا الدّين, هو ما أخذ منهم الوقت ليدوّنوا ما جادت به قرائحهم ,وقد مضت الأيّام و بدأت معالم الدّين تتّضح, و بدأ الصّراع بين المسلمين والمشركين ينتقل من السّرية إلى الجهر, ومن الحجّة بالكلمة الطيّبة إلى مقارعة السيُّوف والجهاد, دفاعا ونشرا للدّعوة الإسلاميّة . وفي هذا الوقت بالذّات تَبَيَّنَ للرُّسول صلى الله عليه و سلم أنَّ النِّضال بقوَّة السَّيف لا يكفي لردِّ المشركين, فقد استعان صلى الله عليه وسلم بحسَّان بن ثابت رضي الله عنه, حيث قال له : " أهْجُهم ورُوح القُدُس معك, واسْتَعِنْ بأبي بكر, فإنَّه علاّمة قريش بأنساب العرب " [1]

وقَدْ دعا النَّبيّ صلى الله عليه و سلم حسَّان بن ثابت, وكعبَ بن مالك, وعبد الله بن رواحة, فَحَثَّهم على قَوْل الشّعر, ونُصْرَة الإسلام ، ويقول لأصحابه:" ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أنْ يَنْصُرُوهُ بِأَلْسِنَتِهم "[2].

فالنَّبيُّ صلى الله عليه و سلم يرى في الشِّعر كأنَّه أحد أسلحة الدَّعوة الإسلاميّة,ومدى وَقْعِه في النُّفُوس, وإنَّ العرب في الجاهليَّة والإسلام ليَعْرِفُونَ مَوْقِع الكلمةِ, وإنَّ وَقْعَهَا لأشدّ عليهم مِنْ وَقْع السُّيُوف على الرِّقاب .

وقد قال الفراهيديّ :"إنّ الشِّعر أحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم من كثير من الكلام "[3] .

فقد جعل له مكانة عظيمة,فكأنَه صلى الله عليه و سلم . يُعَظِّمُه, ويعطيه المكانة اللاّئِقَة به, فقد عرّفه

1- أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام ، تحقيق على محمد البجاوي، دار النهضة مصر للطباعة و النشر ، (د ط) ، 1981 ، ص 35 .

2- محمد كريم الكواز ، البلاغة و النقد ، المصطلح و النشأة و التجديد مؤسسة الإنتشار العربي، لبنان، ط1 ، 2006 ، ص 143

3- سامي مكي العاني ، الإسلام و الشعر ، سلسلة عالم المعرفة رقم 66 ، ص 44 .

تعريفا شاملا حيث قال :"الشِّعْر كلام من كلام العرب, جَزْلُ تتكلَّم به في نواديها, وتَسُلُّ به الضَّغَائن بينها "[4]ورُوي عنه ـ صلى الله عليه و سلم ـ تقسيمه للشِّعْر بقوله:" إنَّمَا الشِّعر كلام مؤلّف, فما وافق الحقَّ منه فهو حسنٌ, و ما لم يوافِق الحقَّ منه فلا خير فيه ",وقال أيضا :" إنَّما الشّعر كلام ، فمِن الكلام خبيث وطيّب" (5)

فمِنَ خلال الحديثَيْن السَّابقيْن يمكن القول أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ قد ربط بين الشِّعر الذي يوافق الحقّ وهو الكلام الطَيِب, والشِّعر الذي لا يوافق الحقّ وهو الكلام الخبيث، ففيه مقاسا للشّعر الحسن؛ فكل شعر خيره في إتباع الحقُّ ,و شرُّه في مخالفته.

و في هذا المقام يتّضح لنا موقفا إسلاميًّا من الشّعر،ونُعَرّج فيه عن قضيّة فلسفيّة، ألا وهي الفنّ وعلاقته بالأدب "والفنّ من أجل قضية ما ،هو هدف إنساني يسمو على كلّ المواضيع الأخرى .... وتوظيفه في خدمة إنسانية نبيلة ، وفي المقابل فإنّ الأدب والقضيّة قد يعانيان أحيانا من اللّجوء إلى النّفاق، وتحريف الأفكار والحقائق", وقد أثنى النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عن الشِّعر خاصَّة في قوله: إنَّ مِن الشِّعر لحكمة,وإنَّ من البيان لسحرا.

"فنلاحظ أنّ موقفه صلى الله عليه و سلَّم ـ مع موقف القرآن الكريم،وقد كان يَتَذَوَّقُ الشِّعْرَ, ويرتاح لسماع الحِكَم فيه, لذلك وجدناه يسمحُ للشُّعراء بإنشادهم الشِّعر له"[6]

فالأدب الإسلاميّ أضفى على الشّعر صبغة ميدانيّة ،"والملفت للنّظر أنّه وصف المضمون بالحكمة، الصّادرة عن تجربة إنسانيّة بانيّة للكيان الإنسانيّ والاجتماعيّ،وليس المضمون العبثي، كما وصف الجانب الفنّي بالسحر، وهو وصف يحمل طبيعة العمل الفني ، وإن كان لتقديم الأدب (الحكمة) له دلالة واضحة في التّصوير الإسلاميّ للحياة والأدب"[7]

4-القرشي ,جمهرة أشعار العرب ، ص 34 .

5-أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل سوريا ، ط5 ،1981 .ج1 , ص 27.

6- واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان،ط1 , 1994 ، ص:80.

7- شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار المعرفة ، ط1, 1996 ، ص : 174 .

و من المواقف التي تؤكّد أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشِّعر؛ما أنشده كعب بن زهير حين قال :"

أنْبِئْتُ أنَّ رسول الله أَوْعَدَني * و العفو عند رسول الله مأمولُ**

فطلب منه الرَّسول صلى الله عليه و سلم أن يَذْكُر الأنصار فقال :

من سرّه كرم الحياة فلم يَزَلْ * في مَقْنِت من صالحي الأنصار**[8].

و في هذه النقطة تجدر الإشارة إلى أن الدّين لم يكن عدوا للأدب (الفن) كما يظن البعض ،"فالهروب من النفعية وعدم ارتباط الأدب بأي شيء خارجي (الدين ، العلم،المجتمع)، يؤدي إلى عودة الفن إلى برجه العاجِي ، و يجعله يتبنّى الجمالية المحضة, وبهذا يصبح الفن حرا، ووفقا لهذا الموقف " . [9]

فهذا النِّداء الذي أتت به نظرية الخلق التي سعت إلى تحقيق قضيّة الفنّ للفن، وليس من العيب أن يقول الشّاعر ما في جوفه دون الاهتمام بالجانب السّياقي ، يقول القاضي الجرجاني في الوساطة و هو يتناول قضية فساد العقيدة في الشّعر :"فلو كانت الدّيانة عارا على الشعر، وكان شعر الإعتقاء سببا لتأخُّر الشّاعر لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدّواوين، ويحذف ذكره إذا عُدَّت الطَّبقات ،ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهليَّة ومن تشهد الأمَّة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير ، وابن الزَّبعري وأظرابهما ممن تناول الرّسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفْحمين، ولكن الأمرين متباينان, والدّين، بمعزل عن الشعر") [10].

فالنّبيّ صلى الله عليه و سلم عند سماعه اعتذار كعب بن زهير، وهو ينشده قصيدته المشهورة ، بانت سعاد ، في حضرته ولم ينكر عنه، بل أبقى للأدب أدبيته ."وعلى هذا النحو يبدو أن مذهب الفنّ لا علاقة له بالمسألة الأخلاقيّة وارتباطها بالأدب، فالقول بأن الفنّ غايته في ذاته لا محل للحكم عليه أخلاقيا . و من هنا يتضح أن مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق ، إنما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته، وتحرير الفنون من اتخاذها وسيلة للتعبير عن شخصية صاحبها "[11].

8- القرشي، جمهرة أشعار العرب ، ص:32

9- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ، دار المنتخب العربي ، ط1 ،1993، ص :66

10-القاضي الجرجاني ، الوساطة بين أبي تمام و خصومه – صححه و شرحه أحمد عارف الزين,مطبعة العرفان ، (دط) 1331 هـ ، ص : 58

11-محمد مندور ، في الأدب و النقد ، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع الفجالة ، مصر، (د ط) (د ت)، ص31

فالإسلام لم يمنع الأدب أدبيته ، وجعل من القول بما يخالف مبادئ الدّين في الشّعر, وإنّما هو بين القول والمعتقد ،" وأنَّ العرب لم تعتنق مبدأ الالتزام بالعقيدة الدّينيّة ، ومبادئ الأخلاق الإسلاميّة في أشعارها،وإنّما عرفوا في حياتهم مبدأ الفصل بين القول والفعل بدليل سماعه لقصيدة حسّان الذي يقول فيها :

و نَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وأُسْدا ما يُنْهنُهنا اللّقاء

فسكت عنها لأنه كان مدركا أنّ ذلك تقيّد فني ليس غير [12].

فالنّبي – صلى الله عليه و سلم – قد سمع كثيرا من أشعار العرب ، و التي والتي قيلت بحضرته ،"فقد أعطى لشعر أهمية بالغة، باعتباره فنا معرفيا قادرا على تشكيل العقول من خلال قيمته المعرفيّة والفنية الموحيّة "[13]

فنظريّة (الفن للفن) أو الشّعر للشّعر هي الغايّة منه ،" يرى بودلير بأنّ موضوع الشّعر في الشّعر نفسه، وأنّ الشّعر العظيم الذي يستحق اسم الشّعر هو ذلك الذي يكتب بمجرد المتعة في كتابته" [14]

فالإسلام حقيقة أراد أن يجعل من الشِّعر شعرا ناضجا، كما هو مهتم بالجانب الذّاتي للشّاعر، فيكون ذا صلة بما يحيط به، لتقوم هذه الفكرة الفن الأدبي على أساس خصوصيات الفن، للتّعبير عن الوضوح والجمال

فالنَّبيّ – صلى الله عليه و سلم – قد أعطى للفن فنيته ، والأدب أدبيته بصورة منظمة شريطة أن يكون الفن في موضعه ، قال أحمد أمين :" إذا كان في الإمكان وجود فنّ يخدم المجتمع بأنه الأرقى،ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان"[15].

و كذلك ما رواه السّكري "أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ لمِا سمع قول كعب بن زهير:

وجْناء في جرّتَيْها للبصير بها * عتق مُبِين و في الخدّيْن تسهيل**

قال لأصحابه ما جرّتاها ؟ فقال بعضهم العيْنان ، وسكت بعضهم، فقال لهم :هما أُذُناها نسبهما إلى الكرم ." [16].

12–ينظر نجوى صابر، النقد الأخلاقي أصوله و تطبيقاته ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ,1990 ، ص 200.

13–ينظر محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى القرن السابع الهجري,(دط)،1989, ص35 .

14–عزيز شكري الماضي ، في نظرية الأدب ، ص 69.

15–بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر ، الرياض ،(د ط)، 1984 ، ص 32 .

16–سامي العاني، الإسلام والشعر، ص42

بل كان النَّبيّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يسمع الشِّعر ويكافئُ عنه,وذلك عندما أنشده النّابغة الجعديّ

أَتَيْتُ رسول الله إذ جاء بالهدى * و يتلو كتابا كالمَجَرَّة نيّرَا**

بلغنا السَّماء مجدنا و جدودنا * و إنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا**

فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم :"إلى أين يا أبا ليلى ؟ , فقال : إلى الجنَّة يا رسول الله, فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن شاء الله" (17)

و بعد هذيْن البَيْتَيْنِ نجد الرَّسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يَحْكُم على الشِّعر,وهذا بعد إنشاد بَيْتَيْن أنشدَهما النَّابغة :

و لاخير في حلم إذا لم تكن له * بوادرٌ تحمي صَفْوَهُ أنْ يكدّرا**

و لا خير في جهل إذا لم يكن له * حِلم إذا ما أوْرَدَ الأمر أصْدَرَا**

فقال النّبيُّ صلى الله عليه و سلم : لا فَضَّ الله فاك. (18)

و النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ كان يَتَمَثَّل بقول طرفة بن العبد إذ يقول :

ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلا * و يأتيك من الأخبار ما لم تُزَوِّدِ**

و كان إذا أراد الإستشهاد بالشِّعر في موقف ما؛ يطلب مِمَن يَحْضُرُه أن يروي الشّعر الذي يريد, دون أنْ يجريه على لسانه (19)

و إذا اسْتَحْسَنَ شِعْرا أو أُعْجِبَ به قولا وجمالا عقّب بحكم، كما جعل ذلك في شعر أميَّة بن الصَّلت :

الحمد لله ممسانا و مصبحنا * بالخير صبّحنا الله و مسّانا**

ربُّ الحنيفة لم تنفذ خَزائنها * مَمْلوءةً طبّق الآفاق سلطانا**

ألا نَبِيٌّ لنا منَّا فيُخْبِرُنَا * ما بعد غايتنا من رأس محيانا**

فقال الرَّسول ـصلى الله عليه و سلم ـ : ً آمن شِعْرُه و كفر قلبُه (20)

17مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، دار مكة ، للطباعة (د ط) 1998 ، ص 42

18ينظر القرشي,جمهرة أشعار العرب ، ص 38

19ينظر عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ، أشكاله وصوره ومناهجه ، ديوان المطبوعات الجامعية, 2010, ص 50

20ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، دار الغرب للنشر و التوزيع، (د ط) (د ت) ، ص 52

و لم تقتصر سنَّة النَّبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند سماع الشِعر واستحسانه فقط,بل تجاوزت إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه، فيُرى النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يُصْلِحُ قول كعب بن زهير :

إنَّ الرَّسول لنور يُستضاء به *** مُهَنَّد من سيوف الهند مسلول

فيجعله مُهَنَّد من سيوف الله[21]

فإشادة النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ بالشِّعر والسَّماع لحِكَمِه, والإستشهاد بما يوافق الحقَّ, جعلت مكانة الشِّعْر عالية ولِتَرْسِيخِ مبادئ الدِّين فيه .

و كما صحّح كذلك بيت كعب بن مالك :

"..... *** **مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة.**

فيجعلها: مقاتلنا عن ديننا[22]

فلقد كان الرَّسُول صلى الله عليه و سلم يسعى لتوجيه الشِّعر الوِجْهَةَ الصّحِيحَة المُلْتَزِمَة, التي لا تُخَالِف الحقَّ والصَّواب, ولا تدع إلى رذيلة أو كفر.

و على هذا الأساس فالإسلام قد رسم لهم منهجا جديدا للشّعر، يُنْظَر إليه في ضَوْءِ الهديّ الإسلاميّ, فكلُّ شعر فيه حكمة, أو هدف تربوي أو ذكر للتُّراث أو الدِّفاع عن الدَّعوة أو الحثِّ عن الفضائل والعزَّة و الكرامة لنجد الإسلام قد حَرِص عليه كلَّ الحرص, ودعا له.

ففي هذا الموقف الأوَّل نرى أنّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم لم يكن يقول الشّعر, بل كان يسمعه و يحكم عليه, و يُصوّب خطأه ,ويُصَحِّحُ ما يجبُ تَصْحيحه, ويُغَيِّرُ صورته إلى الأفضل،فكان عليه الصَّلاة والسَّلام يستشهد بأقوال بعضهم, ويرى الفضل للأفضل منهم، كما رُوي عنه أنّه أحبَّ رؤية عنترة العبسيّ؛ لإعجابه بشعره, و لما رأى فيه من الحكمة والانسجام بين أفكار العِزَّة و الإبَاء .

و أعظم من ذلك , المؤْقف الذي عبَّر به صلى الله عليه و سلم عن إعجابه بالشِّعر, وبروائعه, وكيف يجري في هذه الأمة إلى حدِّ قوله :" لا تدع العرب الشّعر حتى تدع الإبل الحنين[23]

21ينظر عمر عروة , دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 53 .

22ختير عبد ربي,النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 53

23 محمد كريم الكواز, البلاغة والنقد ، ص 147.

وإنَّه لمن عظيم الشّرف أن يَعْتَرِف النَّبيُّ –صلى الله عليه و سلم –ببقاء هذا الجنس الأدبيّ وهو الشِّعر"فمذهب الفنّ للفنّ لايتعارض مع الأخلاق, وإنّما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته,وتحريرا للفنون من اتّخاذها وسيلة للتّعبير عن شخصيّة صاحبها ,فهو لا يناهضها[24]

وهناك موقف آخر للرّسول صلى الله عليه و سلم من الشّعر، وقد ذَكَرَتْه كتب النَّقد معتبرِين ذلك حكما عليه, كما قال تعالى:{**والشُّعَرِاءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُون**}(الشعراء 224)

و قد نزّه الله نبيه عن قول الشعر فقال{ **و ما علّمناه الشّعر و ما ينبغي له**}(يس 69). وقوله تعالى :{ **أمْ يقُولُونَ شَاعِر نَتَرَبَّصُ به رَيْبِ المَنُونِ** }(الطور 30).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم, فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم {أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟}.[25]

ففي هذه الآيات من القرآن الكريم يَتَبَيَّنُ لنا :

- أنَّ الرّسول صلى الله عليه و سلم لا يليق به قول الشّعر، وأنَّه ليس في حاجة له .
- اتَّهَمَ المشركون النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بقَوْل الشِّعر, وهذا لمعرفتهم بمكانته بين نواديهم – أي الشّعر – و ما رأوا فيه من السّحر و البيان .أثبتت الآية **{ و الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعْهُمُ الغَاوُون }** وهذا سبيل الغيِّ والضَّلال, وإلا فالقرآن الكريم سبيل الخير و الهُدى [26]فلم يكن هذا الحكم حكما مُطْلَقًا, بل كان حكما مُتَعلِّقًا بأغراض الشِّعر التي عارضت الدَّعوة الإسلاميّة و قامت ضدَّها ،فالإسلام لم يُحَرِّمْ نظم الشِّعر – من خلال الآيات السابقة – ," كما يزعم البعض, ولم يهاجم الشُّعراء عامة، وإنَّما يقصد أولئك المشركين الذين يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم, وينهشون في أعراض النَّاس [27]

24ينظر محمد مندور, في الأدب والنقد ، ص35.

25أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت لبنان، (د ط) 1986,ج4ص 243.

26ينظر ختير عبد ربي, النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 34

27واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، ط1 ،1994, ص 77

و ثَمَّة أحاديث أخرى في ذم الشّعر,قوله صلى الله عليه و سلم :"لأن يمتلئ جوف الرَّجل قيْحا خير له من أن يمتلئ شعرا[28]ففي هذا الحديث نرى الاستنقاص من الشَّعر ومكانته, بل والدَّعوة إلى تركه, لكنّ هذا الحكم ليس عامًّا, فهو متعلِّق بالشُّعراء المشركين الذين آذوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم والدَّعوة الإسلاميّة, وإلا فالأحكام السَّابقة – التي تمَّ ذكرها – تُجَسِّدُ موقف الرَّسول صلى الله عليه و سلم من الشِّعر المعتدل, الذي يدعو إلى الفضيلة. وفي هذا الحديث غاية أخرى يجسِّدها حثُّ المسلمين للتَّمسُك بالقرآن,والأحاديث, وترك ما يشغلهم عنهما.وهناك مَن، تتبّع طرق أصل الحديث فتوصّل إلى معناه, كما أشار إلى ذلك مصطفى إبراهيم:" قول عائشة رضي الله عنها: يرحم الله أبا هريرة حفظ أوَّل الحديث ولم يحفظ آخره, إنَّ المشركين كانوا يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا من مهاجاة رسول اللهً [29]

فقد ربط الرَّسول عليه الصَّلاة و السَّلام تحريم الشِّعر وتَجَنُّبه لمن غلب على قلبه قوله, أو كان فيه أذى للإسلام، ولهذا نجده يُكَرِّه كلَّ شعر يدعو إلى العصبيَّة. فعندما سمع قول الرَّجل ينشد :

إنّي امرؤ حُمَيْرِيٌّ حين تَنْسُبُنِي *** لا من ربيعة أبائي و لا مُضَر

فقال له : ذلك ألأم لك, وأبعد, من الله و رسوله [30].

فهذه الصُّورة الجاهليَّة التي دعا الإسلام إلى تركها ,وعدم التّعصب للأصل, وأن الأفضلية في الخلق ليست بالنَّسب وإنَّما بالتَّقوى, كما أخبر بذلك رب البرية في القرآن.

و هنا يتّضح لنا موقفا آخر للإسلام من الشّعر ، ففي أول الأمر كانت النّظرة مختلفة، فبدأت التّربيّة الإسلاميّة تُوجِّه الشّعر نحو الأفضل وربطه بمبادئ الدِّين ،"ليس الالتزام في الأدب الإسلاميّ، نقيضا للحريّة أبدا لأنّ الحريّة الحقيقيّة هي ألا تعبد أحدا إلا الله "[31].

فهنا جاء الرّبط بين الأخلاق والدّين بمنظور يوافق الفطرة، فيرى أفلاطون أنّ للشّعر رسالة سامية، إن لم يحقِّقها فهو شعر فاسد ، لأنه أوهام لا تجد لها ظلال في عالم الحقيقة والشعر ينبغي أن يحثّ على فعل الخير،

28ينظر مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص 64

29المرجع نفسه ، ص 64

30ينظر المرجع نفسه ، ص 72

31شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، ص 71

وأن يصور النّاس تصويرا ملائما من شأنه أن يؤخذ على سبيل الاحتذاء . [32]

فالتّوجيه الإسلاميّ للشّعر ، هو الذي جعل منه فنّا مصونا بعيدا عن الرّذائل, والأمر لا يتعارض مع الدّيانة الإسلاميّة الملتزمة بهذه الأخلاق، فقد عرف الكثير من الشّعراء الذين صانوا أشعارهم على النقائص، وناصروا الفضيلة ،"فالنَّبيّ صلى الله عليه و سلم، قد وظَّف المعيار الأخلاقيّ في نقده مرتبطا ببعض العبارات الذَوقيَّة التي تخضع للانطباع الشّخصي [33]

فالفكرة الإسلاميّة والتي سعت جاهدة لتوظيف الأدب توظيفا حسب معتقدها، وهنا نرى تأثير الإسلام فيه، توجيها ودعوة وإرشادا ، والأخذ بيده إلى ما يوافقه، فالدّين والأخلاق يُنزعان من قوس واحدة ، ويرميان إلى غاية واحدة،فإن هذا الربط الوثيق بينهما كربط بين الشخص وظلّه للتَّداخل بينهما، لأن الدِّين هو الرّوح بالنسبة للجسد، وما هذه الانفعالات إلا حالة طارئة"فالقضية الأخلاقيّة في الفنّ لا يُقصد بها الوعظ والإرشاد المباشر، بل للفنّ أدواته التّصويريّة الخاصّة في نقل الإحساس الأخلاقيّ وتعميمه في النّفس الإنسانيّة ,ولعله بسبب من هذا كان كتاب الإسلام الأكبر يُعمق هذا الإحساس من خلال صوره الفَنِيَّة وأساليبه النَّفسية المؤثرة [34]

فهنا قد سعى الإسلام أن يُرجع للأدب مكانته اللائقة به،وموافقته للفطرة الإسلاميّة لأن الأخلاق والدِّين هما (الذات و الروح), لأننا لا يمكن أن نتصور الدّين السماوي بأخلاقه العالية موافقا لشعر يخالفه.و قد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم استهْجانه لبعض الأغراض, والتي فيها مساس بالمشاعر والأحاسيس, ولما تحمله من هوان و ذِلَّة فقد قال :" من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر[35]

فالذَّم المفهوم من قوله صلى الله عليه و سلم هو ذاك الكلام الذي يُلْحِق الأذيَّة بالمسلمين وبالإسلام ، وينهش في أعراضهم و يستصغر حالهم .

و مجمل القول أن النّهي الوارد في أقواله صلى الله عليه و سلم:" مُنْصَرِفُ إلى أولئك الشُّعراء الذين اتَّخذوا الشِّعر لعبا ولهوا ينالون به الأعراض,و يُشعلون به نيران الفتنة والعداوة والبغضاء بين النَّاس, ويستَنْزِفُون

32ينظر بدوي طبانه ، قضايا النقد الأدبي ، ص 63

33 محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي ، ص63

34شلتاغ عبود ، الملامح العامة النظرية الأدب الإسلامي ، ص : 47

35واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، ص 76.

به أموالهم بالثناء و الكذب [36]

وقد قال صلى الله عليه و سلم في شأن امرؤ القيس :" ذلك رجل مذكور في الدُّنيا شريف فيها، مَنْسِيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها, يجيء يوم القيامة معه لواء الشُّعراء إلى جهنم [37]

فهذيْن الموقفيْن من الإسلام ومن النبي صلى الله عليه و سلم يمكن أن نقول فيهما:

أولا: أن الرّسول صلى الله عليه و سلم اتُّهِم بالشِّعر لفصاحته وإعجازه, فردَّ القرآن عليهم ذلك و برَّأه ممّا قالوا، فهو لم يقل شعرا قط بل استحسنه, و سمعه و صوَّبه, وصحَّح المعْوجَّ فيما سمع منه .

ثانيا:استغلاله سلاحا للدِّفاع عن الدّعوة :" أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بعدما تمكَّن القرآن من السَّيْطرة, ووضحت رسالته, و تبيَّن الفرق بين القرآن والشِّعر كان له موقف آخر إذ حثَّ الشُّعراء على الدِّفاع عن الإسلام [38]

ولا يُفهم من هذا أنّ هناك خلط بين القرآن والشّعر لدى العرب ,لأنّهم كانوا أعلم بهذا,لكن حتى لا يَشْغُل بالهم. فبعدما كان الشِّعر مذموما وقد مُنِع القول فيه،(لاستغلاله في مخالفة الإسلام),اسْتُغِلَّ كأحد أسلحة الدّعوة الإسلاميّة دفاعا و نشرا .

و قد صوّر شوقي ضيف حياة الشّعر في العصر الإسلامي :" و من الظُّلم للإسلام أن يُقال إنَّه كفَّ العرب عن الشِّعر ووقَّفَ نشاطهم، فقد كان يُنْشَدُ على كلِّ لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله, سواء في معركة الإسلام مع الوثنِيَّين أو في الفتوح ...و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإنَّ أحداثه حلَّت عقد الألسنة, وأنطقت بالشِّعر كثيرين لم يكونوا ينطقوه [39]

و نجد ابن رشيق القيروانيّ قد جعل أحد عناوينه،"باب في الرّدّ على من يُكرّه الشعر[40]

و قد أورد في هذا الباب عدّة أحاديث و قصص وروايات عن النَّبيّ صلى الله عليه و سلم,وعن خلفائه

36–محمد كريم الكواز ، البلاغة والنقد ص 146

37–عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ص49

38–ينظر ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي ، ص 43

39–شوقي ضيف، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط24، 2003 .ص 46

40–ينظر ابن رشيق ، العمدة ، ج 1 ص 27

وأصحابه, وقولهم الشّعر في حضرته صلى الله عليه وسلم, ومن ذلك ما راوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كثيرة الرّواية للشّعر,ويقال أنّها كانت تروي جميع شعر لبيد .

فالإسلام كتابا وسنَّة يرى في الشّعر النّظرة الوسطيّة, وعرف العرب بعد الإسلام وزن الكلمة, "واضطرَّ كثير ممن هجاهم حسّان إلى الاستجارة برسول الله صلى الله عليه وسلم, فرارا من شعره, فلما هجا الحارث بن عوف المرّي و هو مشرك بقوله :

وأمانة المُرّي حيث لقيتُه * مثل الزُّجاجة صَدْعها لا يجبر**

قال الحارث للنَّبيّ صلى الله عليه و سلم :"يا محمد أجِرْني من شعر حسَّان, فو الله لو مُزِج به البحر لمزجه [41] و معلوم أنَّ حسّان قد أذن له الرَّسول صلى الله عليه و سلم بقول الشّعرً أهج قريشا و معك روح القدس ً.

فهاتيْن النَّظرتين للشِّعر بين الاستحسان والاستهجان تُظْهِر لنا أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد نظر إليه من زاويتيْن:

النّظرة الأولى : أنّه يَعْتَبِر الشِّعر خطرا على الدَّعوة أثناء معركته مع المشركين ... وهو موقف نابع من غاية الشّعر التي قد تؤدي إلى الضَّرر بالدّعوة الإسلاميّة و حركتها, رغم أنّ بعض الشُّعراء هجوا الرَّسول صلى الله عليه و سلم و صحابته .

النظرة الثانية : يُفْهم منها إعجاب الرَّسول صلى الله بالشِعر وحثِّه على سماعه .

و يظهر ذلك من خلال مواقف كثيرة فقد كان يكافئ المحسن من الشُّعراء و يعفو عن المسيء منهم, و هو الذي استنشد الخنساء, وحثّ حسان على نظم الشَّعر[42]

و خلاصة القول في هذا الباب أنَّ الرَّسول صلى الله عليه و سلم قد وجَّه الشِّعر توجيها صحيحا فقد "دفع به للاغتراف من بحر العقيدة, والنَّهل من ينبوعها الثَّريّ ، وكل ما اتفق معها فهو الحقُّ، وكلّ ما جافاها أو اعتدَّ بقيم تتنكَّب لها مرفوض مُسْتَهْجَنْ, يحتاج إلى توجيه وتصويب [43]

41 سامي العاني ,الإسلام و الشعر، ص 55

42ينظر عمر عروة، دروس في النقد الأدبي ، ص 49

43مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب, ص 73

فالإسلام على لسان الرّسول صلى الله عليه وسلم قد قوّم الشّعر, فَسَلَب منه النّخوة ، الجاهليّة و العصبيّة العمياء, والدَّعوة إلى الظُّلم والتَّحريض والصَّدِّ عن الإسلام, وهجاء الرَّسول صلى الله عليه و سلم ، فنقَّاه وطَهَّره, وجعله طريقا للدّفاع عن الإسلام, فالكلمة لها وقعها على النُّفوس, فعندما اقتضت الحاجة إلى عدم الاشتغال بالشّعر وهذا لاشتغال الناس – والشّعراء خاصّة – بالدّعوة الإسلاميّة ,تُرِك الشِّعر, وعندما جاء المشركون وجعلوا منه سلاحا للطَّعن في الإسلام ، حذَّر النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم من هذا النَّوع, وفي نفس الوقت حثّ الشُّعراء للرَّد على هؤلاء القوم ."لقد أدرك الرَّسول صلى الله عليه وسلم القيمة الحقيقيَّة للشِّعر,حيث كونه مؤثِرا في المجتمع,ومن حيث وسيلة فعّالة للدّفاع عن الدّين,وذلك يستتبعه بالضّرورة لون من التّذوّق النّقدي بالرّفض أوالقبول,بل إنّ الأمر يتجاوز ذلك محاولة تحديد مفهوم للشّعر من حيث الصّياغة والتّركيب, وطبيعة اللّغة التي يستخدمها,ومن حيث المقام الذي يصلح له ,والمجال الذي يستدعيه[44].

فهي نظرة تربوية تدعو إلى القيم والأخلاق, وهذين الموقفين هما في قوله صلى الله عليه و سلم "إنّما الشّعر كلام مُؤَلَّف فما وافق الحق منه فهو حسنٌ، و ما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ً. و قال ً: إنَّما الشِّعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب [45]

و هذا الكلام – والله أعلم – فيه ردٌّ جازم على من زعم أنَّ الإسلام قد استنقص الشّعر وحطَّ من قيمته, بدعوى طغيانه عن القرآن, فهذا زعم لا أساس له من الصِّحة, لأنَّ القرآن هو من تحدى الشُّعراء – لمعرفتهم باللُّغة و الفصاحة,و تعظيم النّاس لهم, ولمكانتهم بين أقوامهم – طلب منهم أن يأتوا بمثل هذا الكلام ولو بسورة واحدة, بل ولو بآية من آياته في فصاحتها ودقَّتها وحسْنِ تركيبها, فالإسلام قد أنصف الشّعر,فقال للمُحسن أحسنت, وللمسيء أسأت, فما كان فيه خير قُبِل, وما كان فيه شرّ رُفِض .

و ربَّما جاءت شبهة "إصغار العرب للشِّعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشّعراء .... القرآن إنّما يهاجم شعراء المشركين ... لم يهاجم الشّعر من حيث هو شعر، و إنَّما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله و رسوله"[46].

---

44 محمد عبد المطلب جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم،الشركة المصرية العالمية للنشر,لونجمان ,ط1 1995,ص27

45 ينظر ابن رشيق، العمدة ، ج 01 ، ص 27

46ينظر شوقي ضيف, العصر الإسلامي ، ص 44

فالإسلام لم يظلم الشّعر و لم يجحد له فضلا ولاحقّا, وأولاه كل الحقِّ وجعله طريقا ومنهجا، بل نرى الشُّعراء يأخذون من المبادئ الإسلاميّة وهم يجَسِّدونها ويظهرونها للنّاس, تربية وأدبا, و قد استعمله الإسلام لنشر دعوته ,لما عرف من مكانته في القلوب وتعظيمه في النُّفوس, بل جعله المثل الأعلى لأدبهم ,و لهذا نجدهم قد اتَّهَمُوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بأنَّه شاعر؛ لما يروه من السِّحر و البيان . فالإسلام كان بين من غلا جفا في هذا الجانب,فكلُّ شعر فيه خير قَبِلَه, وكلّ شعر فيه شرّ نبذه و تركه"فالمتتبّع لمواقف الرّسول الكريم في مدح الشّعر وذمّه يلمس لأول وهلة أنّه أمام معيار أخلاقيّ جديد نُظر إلى الشِّعر من خلاله...غير أنّ الذي يمعن النظر في مواقفه صلى الله عليه وسلم يدرك أنها لا تهدف إلى تكوين معيار نقدي أخلاقيّ محدد يُحكم على الشعر من خلاله بالجودة أو الرداءة أو بتقدّم شاعر أو تأخيره,أو إبراز قيم أدبية ,وإنّما كانت تهدف أساسا إلى توجيه الشّعر والشّعراء توجيها إسلاميا أخلاقيا يتفق مع سنن الدّعوة الإسلاميّة ويلاءم الفطرة السّليمة ولا يؤذيها"[47]

47محمد بن مريسي الحارثي,الاتجاه الأخلاقي في النقد ، ص 61

المحاضرة الثالثة : قضية الصراع بين القديم والجديد

العصر العباسي كان عصر صراعات كبيرة ، كانت نتيجة للتحولات العميقة التي شهدتها الحياة العربية ، مع بداية العصر العباسي، وقد كانت قضية الصراع بين القديم والجديد المادة الدسمة التي أثرت صفحات الكتب النقدية آنذاك؛ فقد "أصبح من الحقائق الواضحة في تاريخ النقد العربي ، أن الشعر في العصور الإسلامية، ظل يتجاذبه اتجاهان فنيان ، أحدهما قديم والآخر محدث. وقد كان لكل اتجاه من هذين في البداية، مفهوم خاص، ولكنه تغير بعد ذلك، تبعاً لتغير الزمن، وتبدل ذوق العصر وفكره؛ فمثلاً كان مفهوم القديم في عصر الرواة الأوائل كأبي عمرو بن العلاء159هـ، وحماد158هـ، وخلف الأحمر180هـ مقتصراً على الشعر الجاهلي وحسب، أما المحدث فهو كل شعر ظهر بعد ذلك"[1].

والصراع بين القديم والمحدث أمر طبيعي؛ ذلك أن أي مستحدث مرفوض، ومن أبرز المنتصرين للشعر القديم الرافضين للمحدث ابن الأعرابي، إذ يقول المرزباني صاحب الموشح عنه: "أخبرنا أبو بكر الجرجاني، عن أحمد بن عبيد بن ناصح، قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبي نواس وغيره– مثل الريحان يُشمُّ يوما ويذوي فيرمى به ؛ وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا"[2] ، وكان أصحاب مذهب القديم ، يرفضون كل محدث حتى إن وجدوا فيه جمالاً ؛ من ذلك أن رجلاً "أنشد ابن الأعرابي شعراً لأبي نواس أحسن فيه ، فسكت . فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر؟ ...فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إلي"[3].

وكل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى كل من قبله، "وكان أبو عمروا ابن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته! يعني بذلك

[1]–عثمان موافي،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها،دار المعرفة الجامعية،مصر،2000،ص13

[2] – المرزباني، الموشح، تح:علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص313.

[3] –المرزباني ،المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

شعر جرير والفرزدق فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين"[4].

ويواصل ابن رشيق ؛ ليعرض قول الأصمعي عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء، "قال الأصمعي: جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي![5].

هذا عن مذهب المنتصرين للقديم ؛ بينما نجد طرفا آخر يمثله ابن قتيبة ، وأبو محمد بن وكيع ، وغيرهما ممن تقبلوا الشعر المحدث؛ إذ "كان مؤلف الشعر والشعراء لابن قتيبة مثالا للتأليف الذي اتسم بالاعتدال والإنصاف في قضية نقدية سميت في القرن الثالث الهجري بالخصومة بين القدماء والمحدثين وجاء كتاب ابن المعتز طبقات الشعراء المحدثين ليتمم مسيرة السابق ويسد ثغراته عن طريق التأليف في الشعراء المحدثين وإنصافهم غاية الإنصاف ... وتداول المؤيدون والمعارضون جميعا حججهم التي تدور حول معاني ذلك الشعر وأساليبه ويتبارى النقاد في التأليف حول هذه الخصومة فيكتب ابن المعتز رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه التي ترينا صورة للنقد الأدبي عند الأدباء المحدثين جلية ويؤلف أحمد بن أبي طاهر 280هـ كتابا عن سرقات أبي تمام و يكتب أبو الضياء بشر بن تميم عن سرقات البحتري و يكتب ابن عمار 219هـ عن أخطاء أبي تمام.ثم يدخل بعد ذلك الناقد الفد أبو الحسن بن بشر الآمدي 370هـ ميدان التأليف حول هذه الخصومة فيؤلف كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري يلخص فيه الآراء التي تضمنتها معظم المؤلفات التي كتبت قبله حول هذا الموضوع ثم يناقش كثيرا من قضايا هذه الخصومة"[6].

---

[4]–ابن رشيق ، العمدة ، ص80.

[5] –ابن رشيق،المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6]– بشرى عبد المجيد تاكفراست،النقد الأدبي في تقويم النقاد المحدثين، آفاق للدراسات والنشر ، مراكش، ط2،2013، ص112.

وهكذا موضوع الخصومة بين القدم والحداثة شغل الرأي العام، ودار حوله حوار واسع؛ ملأ صفحات الكتب النقدية التي زخر بها العصر العباسي؛ الأمر الذي سنعرضه في الصفحات الموالية.

مفهوم الشعر عند النقاد المشارقة والمغاربة

يمكن الإشارة إلى مفهوم الشعر انطلاقا من النثر الذي هو وسيلة التخاطب اليومي؛ يقول ابن رشيق في العمدة : "وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم؛ فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا"[7].

من هنا نلمس بوضوح ماهية الشعر؛ فهو كلام مخصوص ، إنه تعبير عميق عن الذات ، وعن كل جوانب الحياة، مع خاصية الغنائية التي تتحقق بالوزن ، ويمكن أن ندعم هذا الرأي ببعض ما ورد عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، وعن بعض صحابته رضي الله عنهم، فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه قال:" إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"... وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه. وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : الشعر ميزان القول"[8].

كما "قال معاوية رحمه الله: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب ... وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه"[9]

---

[7]– ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، (م س)، ص12.

[8]– المصدر نفسه، ص 19/18.

[9]– المصدر نفسه، ص 20/19.

وقد عرف اللغويون الشعر بمعنى "العلم بالشيء والتفطن له وإدراكه وقالوا إن كل علم يدعى شعرا ولكنه غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن و القافية وعرف نقاد العرب ما بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي من صلة فقالوا إنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر و إن أتى بكلام موزون مقفى فكان النقاد يرون الشعر إلى جانب أنه موزون مقفى لا بد أن تكون فيه معاني يشعر بها قارض الشعر تخصه دون غيره من الناس"[10].

وإذا أردنا تقديم تعريف للشعر يتميز بالشمول والدقة؛ فإننا نعرض تعريف "القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني– صاحب كتاب الوساطة–: الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان"[11].

كما يمكن عرض مفهوم الشعر عند قدامة بن جعفر ؛ الذي يركز في نظرته على الجوانب التي تميز الشعر؛ إذ يقول: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى فقولنا«قول» دال على أصل الكلام الذي بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا «موزون» يفصله مما ليس بموزون،إذ كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا «مقفى» فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا «يدل على معنى» بفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى"[12].

ويشير قدامة إلى أن الشعر يتحقق بهذه السمات؛ لكن يظل التفاوت في الجودة والرداءة " فإذا تبين أن ذلك كذلك ، وأن الشعر هو ما قدمناه، فليس من الاضطرار إذاً أن يكون ما

[10]– أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب،دار نهضة مصر للنشر، ط9،2013ص107

[11]– العمدة ، (م س) ، ص 109.

[12] – قدامة بن جعفر،

هذه سبيله جيداً أبداً ولا رديئاً أبداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران، مرة هذه أخرى هذه على حسب ما يتفق، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الرديء. ولما كانت للشعر صناعة ، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على التجويد والكمال ، إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان ، أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة، وحدوده بينهما تسمى الوسائط"[13].

وللكشف عن مدى الجودة والرداءة ؛ جاء النقد الأدبي ليضع كل نص في الطبقة الملائمة، وعبارة قدامة في تعريف الشعر تدل على أنه أول من حاول هذا التحديد إذ يقول وليس يوجد في العبارة أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه أنه قول موزون مقفى يدل على معنى فكلمة يقال فيه تشعر بأن ذلك التحديد من عمله... وسوف نرى أن تلك الخاصة من أبرز الخواص في الشعر بل هي الخاصة التي فرق بها ابن طباطبا بين الشعر و النثر إذ يقول الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماء وفسد على الذوق فهو لم يفرق بين الشعر والنثر بغير هذه الخاصة"[14].

يمكن الإشارة إلى أن نقاد العرب قد أدركوا "أن الشاعر إنسان غير عادي يمتاز بأمرين أولهما : الفطنة والذكاء و التنبه للمعاني التي لا يتنبه إليها سواه ولم يفطن النقاد و حدهم إلى هذه الخاصية في الشاعر بل إن العرب أنفسهم الذين أطلقوا هذه الكلمة عليه فطنوا إليها منذ القديم فإنهم قد اشتقوها من شعر إذا علم بالأمر و فطن له و عقله. ثانيهما مقدرته على أن يصف ما فطن له وأن يبين عن شعوره في عبارة واضحة و هذا هو ما عناه صاحب نقد النثر عندما قال و الشاعر من شعر يشعر شعرا و إنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول

_ 13

[14]أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب،دار نهضة مصر للنشر، ط9،2013 ، ص107.

و إصابة الوصف بما لا يشعر به غيره يريد أن الشاعر يدرك المعاني التي هي مجال القول و يصيب في وصفها"[15].

ويضع ابن رشيق شرطاً للشاعر المفلق فيقول: " يجب للشاعر أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر: من جد وهزل، وحلو وجزل، وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً في سائرها، فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم، وحاز قصب السبق، كما حازها بشار بن برد وأبو نواس بعده"[16]

أما ابن قتيبة فقد ذهب في نظرته إلى الشعر إلى تصنيفه إلى أربعة أضرب، وحصرها في اللفظ والمعنى؛ بين جودتهما معا أو رداءتهما معا أو جودة أحدهما، لكن تحديد هذه الأضرب الأربعة لا نلمس فيه تحديداً دقيقاً لمعنى الشعر؛ كما لا يميزه عن النثر، وسنعرض إلى هذه الأضرب في حديثنا عن قضية اللفظ والمعنى.

قضية اللفظ والمعنى عند نقاد الأندلس والمغرب العربي

قضية اللفظ والمعنى من القضايا المحورية في النقد العربي القديم، ذلك أن "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"[17]. حسب ما ورد عن ابن رشيق القيرواني؛ الذي نعرض تفصيلاً لرأيه؛ على اعتبار أنه أحد أبرز نقاد المغرب العربي –حسب ابن رشيق – الذي هو من النقاد المغاربة ، ونقدم رأيه مع محاولة لاستنتاج خلاصة انطلاقا من آراء النقاد المشارقة السالفي الذكر.

وابن رشيق يربط صحة الشعر بصحة الطرفين "اللفظ" على الخصوص؛ فيقول: "فإذا سلم المعنى واختل اللفظ كان نقصاً للشعر وهُجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج

[15] المرجع السابق ، أحمد أحمد بدوي، ص22

[16] – ابن رشيق، العمدة، ص 125.

[17] – ابن رشيق، العمدة، (م س)، ج1 ، ص112.

والشلل والعور – وما أشبه ذلك – من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح فإن اختل المعنى كله وفسد – بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة"[18].

ويشير ابن رشيق إلى أن النقاد والشعراء ،"منهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومي وأبي الطيب... وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة وأعز مطلبا فإن المعاني موجودة في طباع الناس"[19]. ويظل ما يربط بين اللفظ والمعنى صلة تكامل، أو كصلة الجسم بالروح. أو كما قال ابن رشيق.

قضية التأويل بين القديم والجديد

لم يعد من السهل ولوج عالم النص لكشف أغواره، بل الأمر يتطلب كثرة مدارسة، والنصوص المستعصية أضحت اليوم الأكثر قربا من النفس، وإن كان هذا الأمر لا ينطبق على شعرنا العربي القديم الذي كان من خصائصه (المعنى المسبق)؛ لكن ميلاد الشعر المحدث منذ العصر العباسي، وتطور شعر الزهد التصوف، كانت المعاني الغريبة ، إلى جانب الغامضة، ومنها كانت الحاجة إلى التأويل بدل الشرح والتفسير و"التأويل فعالية ذهنية إنسانية ، تتيح للمتلقي تعمق أغوار النص، والبحث عن حقائقه المضمرة، وربما المغمورة لاعتبارات

[18] – ابن رشيق ، نفسه ، الصفحة نفسها.

[19] – ابن رشيق ، نفسه، ص114.

خاصة بغرض فهمه. فالتأويل يشكل التجسيد العملي لمضون الفهم في كل عملية تواصلية"[20].

والتأويل رغم ذيوع صيته في النقد الغربي ؛ إلا أن هذا المصطلح لم يغب عن نقدنا العربي ، ففي اللغة جاء في لسان العرب "الأول الرجوع آل الشيء يؤول أولا ومآلا وأوّل إليه الشيء رجعه"[21]. و"المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ،عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ"[22].

وقد "ارتبط مصطلح «التأويل» في التراث الأدبي العربي ب(فعل القراءة/ التلقي) للنص بغرض فهمه ومعرفة مضمونه.فكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت هو وجود مضامين ثابتة وحقائق نهائية بخصوص المعاني المطروحة في النص، وسار هذا الفعل –أي فعل القراءة– محتفظا بهذا المفهوم فترة طويلة من الزمن ، حتى ظهرت المدارس النقدية الحديثة ووضعت مفهوما جديدا للقراءة، وربطت فعل القراءة بفعل التأويل في محاولة منها لإعادة النظر في علاقتنا بالنصوص الأدبية[23].

ويمكن الإشارة أخيرا إلى قضية التأويل ارتبطت بالقرآن الكريم، الذي نحتاج لأجل فهمه تفسيرا عميقا؛ وهذا من مظاهر إعجازه، كما ارتبط المصطلح بالتجربة الصوفية التي عادة ما يسمها الغموض؛ وبالتالي قراءة شعر الصوفية يحتاج دائما إلى تأويل، كل هذا يوضح تجربة العرب المسلمين العميقة مع التأويل.

[20] –لطفي فكري محمد الجودي،النص الشعربوصفه أفقا تأول المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، ص15.

[21] –لسان العرب، مادة آل.

[22] –لطفي فكري محمد الجودي، المرجع السابق، ص16.

[23] – لطفي فكري محمد الجودي، المرجع السابق، ص 18.

المحاضرة الرابعة :قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

مفهوم المديح في اللغة والاصطلاح.

1– المديح في اللغة: جاء في (لسان العرب) "لابن منظور" (المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء.

يقال: مَدَحْتُهُ مِدْحَةً واحدة، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ، مَدْحًا ومِدْحَةً. هذا قول بعضهم، والصحيح أن المِدْحَ المصدر والمِدْحَةُ الإسم، والجمع مِدَحٌ، وهو المديحُ والأماديحُ.

قال أبو ذؤيب: لَوْ كَانَ مِدْحَةُ حيٍّ مُنْشِراً أحداً أحْيَى أبَاكُنَّ يا لَيلَى الأَمَادِيح والمدائح جمع المديح من الشعر الذي مُدِحَ به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مادحٌ من قوم مُدَّحٍ ومديح وممدوح).[1]

وجاء في (أساس البلاغة) للزمخشري:

(مدح: مدحه وامتدحه وممتدح وممدح، يمدح بكل لسان والعرب تتمدح بالسخاء.

وهو يمتدح إلى الناس أي يطلب مدحهم، وعندي مدح حسن ومديح ومدائح ومدح وممدحة وأمدوحة وأماديح).[2]

2– المدح اصطلاحا: (هو تعداد الجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا).[3]

والمدح من الأغراض الشعرية الأساسية التي تناولها القصيدة العربية: (إن القصيدة العربية تناولت أغراض أربعة وهي: المدح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرع من كل صنف منها فروع له، فيكون من المدح المراثي والافتخار والشكل واللطف في المسألة، ويكون من الهجاء الذم والعتب، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وماشا كل ذلك من نوعه، ويكون من اللهو والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك وقاربه).[4] على حد تعبير "قدامة بن جعفر".

إلا أنّ الناقد العربي الحديث "محمد غنيمي هلال" يقصر القول في أغراض الشعر العربي القديم على جنسين من الأجناس الأدبية وهما: المدح والهجاء.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مادة م.د.ج، ص2/452.

[2]- الزمخشري (محمود بن عمر): أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، طبع دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص324.

[3]- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، طبع دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص245.

[4]- قدامة بن جعفر: نقد النثر، طبعة القاهرة، 1938م، ص81.

خصائص شعر المديح: خصائص وأنواع المدح في الشعر العربي القديم.

أولا: خصائص المدح.[1]

من أهم مميزات المديح النبوي أنه شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية التي تتجلى في السيادة والأفضلية باعتبار سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقا ويتميز المديح النبوي أيضا بالصدق في المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب النبي محمد بن عبد الله طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب.

خصائص المديح النبوي مضمونا:

من أهم مميزات النبوي مضمونا:

– شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية، ويهدف إلى تغيير العالم المعاش وتجاوز الوعي السائد نحو وعي ممكن يقوم على المرجعية السلفية بالمفهوم الإيجابي.

– كما أن هذا الشعر تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية التي تنجلي في السيادة والأفضلية والنورانية، ويعني هذا أن المديح النبوي يشيد الرسول ρ باعتباره سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقا، وهو كذلك كائن نوراني في عصمته ودماثة أخلاقه وعليه وسلم في قصيدة النبوية يتخذ أبعاد روحانية وجدانية صوفيه.

– يلاحظ على الغزل الموجود في كثير من القصائد النبوية أو المولدية أنه غزل يتجاور النطاق الحسي الملموس إلى ما هو مجازي وإيحائي، أي ينتقل هذا الغزل من النطاق البشري إلى نطاق الحضرة الربانية.

– ويسافر شعر المديح النبوي في ركاب الدعوة المحمدية وشعر الفتوحات الإسلامية ليعانق التيارات السياسية والحزبية فيتأثر بالشيع تارة والتصوف تارة أخرى. ولن يجد هذا الشعر استقراره إلا مع شعراء القرن التاسع الهجري مع البوصيري وابن دقيق العيد، بيد أن شعر المديح النبوي سيرتبط في المغرب بعيد المولد النبوي وشعر الملحون والطرب الأندلسي ليصبح في العصر الحديث شعرا مقترنا بالمعارضة في غالب الأحيان.

[1]- الدكتور زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، ط1، ص17.

– وعلى أي حال، يتميز المديح النبوي بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب الرسول ρ طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب، وصاحب الرسول في القصيدة المدحية إلا مسلك للتعبير عن حب الأماكن المقدسة والشوق العارم إلى زيارة قبر الرسول ρ والوقوف على جبل عرفات والإنتشاء بكل الأفضية التي زارها الحبيب أثناء مواسم العمرة والحج.

– خصائص المديح النبوي شكلا:

– تستند أغلب قصائد المديح النبوي إلى القصيدة العمودية القائمة على نظام الشطرين ووحدة الروي والقافية واعتماد التصريع والتقفية في المطلع الأول من القصيدة.

– وتتمم القصائد النبوية والمولودية الحديثة ذات النمط الكلاسيكي أو التراثي بتعدد الأغراض والمواضيع على غرار الشعر العربي القديم والسبب في هذا التعدد هو معارضة القصائد الأصلية كقصائد البوصيري وقصائد ابن الفارض وقصيدة كعب بن زهير وغيرها وهذه المعارضة تدفع الشاعر إلى إنتهاج نفس البناء والسير على نفس الإيقاع والروي والقافية واستخدام نفس الألفاظ والأغراض الشعرية.[1]

ومن ثم، فالقصيدة النبوية تتكون على مستوى البناء من المقدمة الغزلية ووصف الم.....ومدح الرسول ρوالتصلية والدعاء والاستغفار والتوبة، وهذا ما أفقد المديح النبوي الوحدة الموضوعية والعضوية على الرغم من وجود الإتساق اللغوي على مستوى السطح الظاهري والإنسجام على مستوى العمق الدلالي.

– وفيها يخص الإيقاع الخارجي، تعتمد قصائد المديح النبوي على البحور الطويلة الجادة التي تتناسب مع الأغراض الجليلة الهامة كالمديح النبوي والتصوف الروحاني والتشيع لآل البيت، لذلك يستعمل شعراء المديح النبوي البحر الطويل والبحر البسيط والبحر الكامل والبحر الوافر والبحر الخفيف، يبعد البحر البسيط من أهم البحور المفضلة لدى الشعراء المديح النبوي ولدى شعراء المديح المعارضة ومن المعلوم أن البردة التي نظمها الشاعر البوصيري كانت على البحر البسيط، لذلك أصبحت هذه

[1]- الدكتور زكي مبارك، المرجع السابق، ص17-18.

القصيدة نموذجا يقتدى به في الشعر العربي الحديث من قبل شعراء المديح النبوي موضوعا وايقاعا وصياغة.

– ومن أهم القوافي التي استعملت كثيرا في الشعر النبوي الميم واللام والهمزة والجيم، وهي قوافي صالحة وضعية لرصد التجربة الشعرية المولودية أو النبوية أو الصوفية الروحانية ماعدا قافية الجيم التي تثير جرسا خشنا ونشاز شاعريا.

– وعلى مستوى الإيقاع الداخلي، شاعر المديح النبوي يستعمل بكثرة ظاهرة التصريع والتوازي الصوتي والتكرار الإيقاعي والجمع بين الأصوات المهموسة والأصوات المجهورة، وينسجم هذا الإيقاع الشعري بكامل مع الجو الموسيقي والنفسي والدلالي للقصائد المدحية.[1]

– وتمتع اللغة الشعرية ألفاظها المعجمية في قصيدة المديح النبوي من حقل الدين وحقل الذات وحقل العاطفة وحقل الطبيعة والمكان وحقل التصوف، كما يمتاز المعجم الشعري بالجزالة وفخامة الكلمات وقوة البنك ورصانة الصياغة وهيمنة المعجم التراثي وغلبة الألفاظ الغريبة غير المألوفة لذلك يغلب الجانب التراثي والبيان السلفي على هذا الشعر الديني كاتبة وتعبيرا وصياغة.

– ويستخدم هذا الشاعر المادح لرسول ρ الجمل الفعلية الدالة على التوتر والحركية والحمل الإسمية الدالة على الإثبات والتأكيد، ونجد كذلك المزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية قصد الوظيفة الشعرية بمكوناتها الإيحائية والمجازية، وغالبا ما يستوجب مكون السيرة وسرد المغزياتالأسلوب الخبري، بينما يقترض تدخل الذات واظهار المشاعرانشا...إلى آخر حسب السياقات المتصدية والوظيفية.

– يشتغل شعر المديح النبوي الصور الشعرية الحسية القا..... على المشابهة من خلال استخدام التشبيه والاستعارة، والاستعانة بالصورة المجاوزة عبر المزح بين المجاز المرسل والكناية الاحالية في التصوير والبيان ويمكن أن تتخذ الصورة البلاغية ذات النطاق الحسي طابعا رمزيا خاصة في المقاطيع الصوفية العرفانية ويتراوح البديع في المديح النبوي بين العفوية المطبوعة والتصنع الزخرفي في القصائد المدحية البديعية التي نظمت في العصور المتأخرة كما عند ابن جابر الأندلسي في ميمته البديعية.

[1]- صلاح الدين هواري، وواقع الأدب العربي، عصر جاهلي، إسلامي، أموي عباسي، منشورات دار الهلال، ص142.

– وينتقل الشاعر تداوليا في قصائده المدحية من ضمير المتكلم الدال على انفعالية الذات والانسياق وراء المناجاة الربانية والاستعطاف الذاتي إلى ضمير المخاطب أو الغياب للتركيز على الممدوح وصفا وإشادة وتعظيما.

المطلب .....: أنواع المديح.

تختلف أنواع المديح باختلاف الممدوحين، ونستطيع أن نميز بين هذه الأنواع أو الألوان كما يحلو للبعض أن يسميها:

– المديح النبوي: وهو الذي يمدح فيه النبي ρ والدين الإسلامي.

– مديح الملوك والخلفاء.

– مديح الأمراء والوزراء والوجهاء.

– مديح العلماء والأدباء.

– مديح الأوطان والبلدان.[1]

[1]- صلاح الدين الهواري، المرجع السابق، ص144.

المحاضرة الخامسة :رثاء المدن والممالك

يعد رثاء المدن والممالك أكثر فنون الشعر قولا وصدقا وأصالة، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاءه، وكذلك وفرة التجارب والأحداث المتلاحقة على أرض الاندلس والمؤثرات الداخلية والخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء وهذا الفن خاص بالأندلس رغم أن له صدورا في المشرق، ولكنها لم تأتي في روعة الشعر الأندلسي ، والرثاء ينحصر في نظرنا في رثاء المدن والآخر في رثاء الممالك الزائلة، وكلا النوعين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية والعبارات الحزينة والألفاظ الباكية والصور الشجية ، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهرة والذيوع يقول غومس" إلى وقد أدركت طائفة من المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الاندلسي وقد قبلت هذه المراثي في مناسبات زوال الدول مثل : رائية ابن عبدون في زوال ملك نين الأفطس أصحاب بطلبوس أو بمناسبة ضياع بلد كبيرمن بلاد المسلمين، من هنا تبرز أن كالآباء والأبناء والزوجات أو الرثاء الرسمي الذي يكون في رثاء أرباب الدول من هنا نتطرق إلى الاجابة على الاشكالية التي تقول ما المقصود برثاء المدن والممالك وماهي أشهر قصائد الرثاء ومن هم أبرز الشعراء الذين تضمنوا شعر الرثاء.

1–الرثاء لغة: الرثاء في اللغة يعني البكاء على الميت ومدحه بعد موته، وقد ورد تعريف الرثاء عند ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم وجميعهم يحومون حول المعنى المتعارف عليه للرثاء وهو البكاء على الميت وذكر محاسنه ورثى فلان فلانا" إذا ... بعد موته ورثوت" [1] الميت ايضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا والرثاء عند الخليل[2] يعني البكاء على الميت ومدحه ، **أما المعنى الاصطلاحي للرثاء**" [3]فقد جاء عند عدد من الادباء والنقاد ومنهم السويسري الذي رأى أن المراثي جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها وفرقت الحوادث بين نفسه وأحباءها وتأسيس لمن سبق إلى هذا المصرع، أما المبرد فقد حصر الرثاء في الشعرية [4]والعزاءهو السلو

[1]إبن منظور بن مكرابة علي (ت 811هـ/ 1311م) لسان العرب ط1 دار صادر للطباعة والنشر/ بيروت

[2]الخليل أحمد، (ت 180– 836) كتاب العين 1980، تحقيق مهدي الخوارزمي وابراهيم السامرائي

[3]النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 832– 1323م) تحقيق يحي الشامي.

[4]المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (286– 686م) (286– 686م) التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم ، تقديم وتحقيق: محمد ابراهيم الجمل، دار النهضة مصر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 45.

وحسن الصبر على المصائب وأحسن الشعر عنده " ما خلق مدحا بتفجع واشتكاء بفضيلة لأنه يجمع التوجع الموجع والمدح البارع إعتذارا من افراط التفجع باستحقاق المرثي فإذا وقع نظم ذلك بكلام صحيح ولهج معربة ونظم غير متفاوتة فهو الغاية من كلام المخلوقين".

رثاء الدول والمماليك: نجد دارس الادب العربي رثاء المدن من أهم الموضوعات الشعرية المماثلة في ثناياه متضمنا آثار التقلبات السياسية التي اجتاحت عصوره المتباينة إلا أننا لا نجد أثرا واضحا لهذا النوع من الرثاء عند الجاهليين بالرغم من أهميته وذلك أنهم كانوا يعتمدون حياتهم على التنقل من مكان لآخر تحثا عن الغذاء والماء فالاستقرار كما هو معروف ليس من سمات المجتمع العربي الجاهلي فلم يكن الشاعر الجاهلي مدن يبكي عليها فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلبا للمرعى وسعيا وراء العيش ما يراه في الحضر عما خلقه في البلدية من ... وقيام واصحاب[1]، وقد برز رثاء المدن بشكل جلي في الشعر العربي المشرقي عندما حل الخراب بحضارة الدولة العباسية " بغداد" وبرز الخريمي[2]راثيا لها مصورا نكبها ومائل بها اثر الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون ، ابني هارون الرشيد ومما قاله أبو يعقوب الخريمي في ذلك[3] :

يا بؤس بغداد دار مملة دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الله ثم عاقبها لما احاطت بها كبريائها

ولكن هذا اللون من الرثاء لم يزدهر في المشرق ازدهارا في الاندلس ويعزي ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الاندلس كانت أشد مدة واسرع ايقاعا وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين اراد الصليبيون طرد المسلمين واخراجهم من الاندلس يضاف إلى ذلك أن الشعر الاندلسي تميز بالنضج والتي استمرت عند الاندلسيين في حين نجد أن شعراء المشرق يعرضون لهذا الفرض أي رثاء المدن فالتفوق حاصل كما وكيفا فالأندلسيون استطاعوا ان يجعلوه اتجاها قائما بنفسه

[1]البيومي، محمد رجب ، رثاء المدن بين الأندلس والمشاركة، مجلة الأديب مايو 1965.

[2]الخريمي اسحاق بن حسان ابا يعقوب بن القيم، ص 589- 582

[3]ابن قتيدة أبومحمد عبد الله بن مسلم الدنيوري (ت 286 الشعر والشعراء) دار الكتب العلمية ص 580.

وبابا من أبواب الشعر أبدعوا فيه القول واجادوا فيه الصباغة [1] وللبيئة الاندلسية ايضا دورا كبيرا في ارتباط الاندلسي في بيئته الخلابة التي تمتاز بجمال الطبيعة والضلال الوارثة والينابيع المتدفقة والخضرة الدائمة فلم يكن امام الشاعر وهو يراها .....إلا أن تجود ....الشعرية بما يعاكس صدق انتمائه إلى بلده ، وحبه لها وما اصدق الرصافي البنلي وهو يملل فيه لبلاده بقوله: [2]

بلادي التي ريشت فو بدمي بها فريقا وكوتني قراراتها وكرا

مبادئ لين العيش في ريق الصين أني الله أن انسى لها اندا ذكرا

رثاء المدن:ارتبط الشاعر الأندلسي بمدينته ارتباطا وثيقا جعله يكسب وطنه ويدافع عنه بلسان غضب وبيان قوي ومنطق سهل يصور فيه الانتصارات، وينحب فيه الانكسارات إذا ما فقدت الامه أدوات الدفاع عن نفسها كالوحدة والدين والتعاضد وغيرها مما تحتاج إليه لتكون حصيدة مشبعة مهاية الجانب لا تطلب الرحمة من المتجبر ولا تحتكم إلى العدو الظالم وكما بينت سابقا أن شعر رثاء المدن والممالك تطور في الاندلس تطورا ملحوظا فظهر بحلة جديدة جعلتنا نحكم على أولئك الشعراء شديدو الارتباط بمدنهم، محبون لها، غير راضيين عن السياسات التي كانت وراء ضياع كثير من مدن الأندلس لذلك صور الشعراء التدمير والتخريب الذي لحقه الأعداء بالحذافير الاسلامية في الاندلس غالبا ما كان في موقف الاستنجاد والرثاء لعلهم بذلك يثيرون الهمم ويحركون العزائم ويلهبون المشاعر [3]وتعد ....[4]من اهم المدن الاندلسية التي تقلب عليها الروم وعاثوا فيها فسادا فأسرقوها عند خروجهم منها سنة 1495 فكان ذلك أثر في نفس الشاعر الأندلسي أبي اسحاق ابراهيم في ذلك[5]

[1] سطاني الجيلالي، اتجاهات الشعر في عصر المرابطين فالمغرب والاندلس 1987 ، جامعة دمشق

[2] الرصافي البنلسي، الديوان، ص 69.

[3] الرقب ، شفيق محمد شعر الجهاد ل عصر الموحديين 1984، مكتبة الاقصى: عمان ، ص 144.

[4] بلنسبة: تقع في شرق الاندلس وهي مدينة سهلية وقاعدة بين قوايد الاندلس في مستو من الارض ،عاهدة قطر كثيرة التجارات وهي على نهر جار ينتفع به الناس لها

[5] الحميري: صفة جزيرة الاندلس، ص48.

قصائد في رثاء الأندلس يعكس رثاء المدن بالأندلس بجهاد نفس وكفاح أمة بفترة زمنية امتدادها يزيد عن ثمانية قرون وقع بها الكثير من الأحداث التاريخية الهامة مثل عبور المسلمين والعرب مضيق جبل طارق ثم خروجهم من غرناطة كآخر ممالكها لذلك تم كتابة الكثير من القصائد على يد الشعراء الذين ذاقوا مرارة تلك الأحداث فتشكلت بواسطتهم الدواوين والقصائد التي تم تصنيفها من مراثي .... الشعر الغربي على مر العصور [1]

ولعل من أشهر تلك القصائد قصيدة أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس التي تحمل عنوانا لكل شيء إذا ما تم نقصان، والتي قام بكفايتها الشاعر (صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي)،وقد كان يكنى بأبي البقاء والذي ولد عام 1204م، بمدينة رندة في الأندلس ، ذاع صيته عقب ما قام بكتاباته قصيدة شهيرة التي قم من خلالها برثاء الأندلس بعدما تهاوت على يد الاسبان مدنها وسقطت واحدة تلو الأخرى وقال بمطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يضر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره الزمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأنها

ما بال دمعك لا يني مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره

أللوعة بين الصلوع لطاعن سارق ركائبه وشطت داره

أم للشباب تقافقت أوطانه بعد الدنو وأوفقت أوطاره

أم للزمان أتى بخطل فادح من مثل حادثة حلت اعصاره

بحر من الاحزان في غيابه وارتج ما بين الحشار فازة

[1] رثاء المدن والمماليك بالأندلس، 1204.

الأبيات هن تصور إنسان يعيش في بحر من الأحزان مضطربا، كثير البكاء شديد الوحدة والصباية ويبحث عن الخلاص من هذه الحالة إلا أنه لا يعرف لها علة أو سببا [1] ثم بين الشاعر أن بلنسية قد انتقلت من الاسلام إلى الكفر وفي هذا اشارة إلى أن الأعداء قد حولوا المدينة وغيروا ملامحها الاسلامية ولا شك أن قضية التحول من الايمان إلى الكفر تبرز بوضوح رثاء المدن الأندلسية ومن ذلك قول الشاعر مدهول في رثاء طليطلة التي إستولى عليها النصارى سنة 487هـ [2]" فنادت دار الكفر مصطفاة

قد اضطربت بأهليها الأمور

كان للاتجاه الشرقي والأندلسي أثرين في الأدب المغربي فلو يتبعا الثقافتين المشرقية والمغربية في جوهرهما ومظهرهما لما وبدعا فرقا كبيرا الا كما ومدن الفروق اليسيرة في بعض عصور الأدب مثل ظهور بعض النزاعات الاقليمية حسب الظروف البيئية المحليةكما وقع في العصر العباسي الثاني حينما تعددت الأوطان السياسية وأصبح لكل إقليم مشكلاته واهتماماته من هنا نلخص أن تأثر الأدب في هذه الفترة بأدب المشرق وأدب الأندلس لم يفقد شخصيته المغربية وكمالها من مميزات في الوضوح والبساطة والتدين فما وصلنا من شعر رثاء المدن في المغرب العربي هو عبارة عن مطويات فردية أي متوسطة الحجم التي تميز شعر رثاء المدن المغربية القديمة والاشارة إلى العمران والحضارة والمذاهب الدينية واحتلال المدن أو حرقها فهذا كان بدافع الصراعات السياسية والمذهبية أو بسبب حب التوسع على الغير أو لغرض ديني كتوحيد الاسلام أو الدفاع عن الأراضي والممتلكات.

[1] الرقب، شفيق، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص209

[2] إبن الآبار، تحفة القوم، ص214

المحاضرة السادسة : شعر المعارضات بين المشرق والمغرب

يعتبر فن المعارضات الشعرية باب من أبواب الشعر العربي قديم قدمه استمر عبر العصور الأدبية وامتد إلى عصرنا الحاضر، حيث كثرت معارضة الشعراء القدامى بعضهم لبعض، ومعارضة المحدثين للمحدثين القدامى فقلت معارضة المحدثين للمحدثين فما أن يلمع نجم قصيدة من القصائد حتى يتسابق الشعراء إلى معارضتها، ويتبارون في ذلك مجتهدين في إبراز أحسن ما عندهم من أدوات الفن الشعري حتى تكون القصيدة المعارضة في مستوى القصيدة الأصلية أو أحسن منها، أما أسباب اختيارنا لهذا البحث فتنقسم إلى قسمين ذاتية وموضوعية، الموضوعية تتمثل في إثراء رصيد زملائنا الطلبة والذاتية تتمثل في اكتشاف خفايا هذا الموضوع، ومن هنا نطرح التساؤلات التالية: فيما تتمثل المعارضات الشعرية؟ وللإجابة عن التساؤلات وضعنا خطة بحث محكمة تتمثل في مقدمة كمنهجية للموضوع ومجموعة من المباحث كل مبحث تندرج تحته عدة مطالب بإعتمادنا على مجموعة من المراجع والمصادر، وأما عن المنهج المتبع فهو منهج تحليلي.

المعارضات الشعرية:

1–تعريف المعارضات:

أ–المعنى اللغوي: وعارض الشيء بالشيء: قابله، وفلان يعارضني وعارض في السير: سار حباله وحذاه وعارضته بمثل ما صنع أي أتيت إليه بمثل ما أتى وفعل مثل ما فعل[1].

ب–المعنى الاصطلاحي: يعرف شعر المعارضات بأنه نظم شعر موافق لشعر آخر في موضوع معين، حيث يلتزم نظم الشعر الآخر في قافيته وبحره وموضوعه التزاما عاما يعرض فيه الشاعر على مضاهاة الشاعر المعارض في شعره إن لم يتفوق عليه وقد يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من الشعر عند ما يراه في

[1] لسان العرب، ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين)، مادة عرض.

شعر غيره من الشعراء ما يمتاز به من فصاحة وروعة صياغة أو صور معبرة وغيرها من أمور تثير نفس المعجب[1].

2–**تاريخ المعارضات:** الشعر الجاهلي هو أقدم شعر وصل إلينا ولهذا اتخذ مثلا ونموذجا ينبغي احتذاؤه دون أن نجد فيه ذكرا لمعارضات شعرية قبله بل فيه من ذلك حادثة الاحتكام إلى أم جندب لزوجة أمرؤ القيس والتي كانت بدون زوجها وعلقمة (الفحل) حيث قالت لهما: قولا شعرا نصفان فيه فرسيكما على روي واحد وقافية واحدة فقال أمرؤ القيس قصيدته:

خليلي مرا بي على أم جندب *** لنقضي لبانات الفؤاد المعذب.

حتى وصل إلى قوله:

فالسوط ألهوب وللساق درة *** ذهبت من الهجران في كل مذهب.

فقال لأمرئ القيس علقمة أشعر منك فقال وكيف ذلك؟ لأنك جهدت فرسك بسواط وأما علقمة فقد أدرك طريدته ولم يضربه بسوطه ولا زجره فقال أمرؤ القيس ما هو بأشد مني ولكنك واقمةفطلهقا وخلف عليها علقمة فسمي (الفحل).

أنواع المعارضات الشعرية مع الأمثلة: لقد تنافس الشعراء قديما وحديثا في شعر المعارضات وفيما يأتي عرض لأنواع المعارضات الشعرية:

أ–معارضة الشعراء القدماء للقدماء: اشتهر هذا النوع من الأدب بين الشعراء قديما وخصوصا في فترة الازدهار ومن الأمثلة على ذلك معارضة صفي الدين الحلي للمتنبي[2].

يقول المتنبي: امتدح فيها علي بن منصور الحاجب:

يأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات الحرير جلابيا.

[1]عبد الرؤوف زهدي مصطفى عمر الأسعد، المعارضات الشعرية وأثرها في إغناء التراث الأدبي، ص 904–919.

[2]عبد الرؤوف زهدي مصطفى عمر الأسعد، المعارضات الشعرية وأثرها في إغناء التراث الأدبي، ص 916/911.

قول صفي الدين: معارضا المتنبي التي امتدح بها السلطان ناصر بن محمد:

أسلبن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا.

ب–معارضة الشعراء المحدثين للقدماء: انتقلت المعارضات الشعرية من العصر القديم إلى العصر الحديث ومن أبرز القصائد قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي معارضا البحتري[1].

البحتري: وصف بها إيوان كسرى ومطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس.

أحمد شوقي: وصف بها آثار المسلمين في الأندلس ومطلعها:

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي.

2–أثر شعر المعارضات على التراث الأدبي:

*تجاوز مرحلة التقليد والانطلاق إلى سياق الإبداع والابتكار، فقد فاق بعض المعارضين فيما نظموه من عارضوهم من الشعراء من حيث الأسلوب والمضمون.

*انتشار روح التنافس بين الشعراء لعرض قدراتهم في ميادين الشعر مما جعل رياض الأدب خصبة بالفرائد والنوادر ليشيدوا بذلك صرحا أدبيا عظيما يصور المعنى الحقيقي لمقولة "الشعر ديوان العرب".

*المحافظة على التراث الشعري القديم والحديث عبر العصور[2].

أغراض المعارضات الشعرية: لم تقتصر المعارضات في الشعر فقط بل في النثروأسماء المدن وغيرها فمن باب أولى تنوعها في أغراض الشعر فنجد معارضات في المدح والغزل والاعتذار والهجاء والرثاء والوصف وإذا كانت المعارضات تلتزم الوزن والقافية فإن موضوعها لا يتحدد بل يتعدد فالمعارض

[1] نفس المرجع.
[2] نفس المرجع.

الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبتعد عنه حتى ينتصر عليه[1].

س: هل المعارضات كانت في الشعر فقط؟

ج: إن المفاوضات كانت في الشعر والنثر بل حتى في الحياة اليومية وما ذلك إلا إعجاب الأندلسيين بأدب المشرق وتأثرهم به لأنهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه وهم فرع من هذه الشجرة ومعروف أن الفرع يعود إلى الأصل فأسماء مدن المشرق كانت في المغرب، وفي النثر مثل ذلك فتعمده في اتخاذهم أسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقيةواتخاذهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فكتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه حاكى فيه (عيون الأخبار) لابن قتيبة وكتاب ابن بسام المشهور (الذخيرة) تأثر في تأليفه بكتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي[2]، ومن هذا يتبين لنا أن المعارضات كانت في الشعر والنثر ولم تقتصر على واحد فقط.

الخاتمة:

بعد هذه اللمحة السريعة على المعارضات تتضح عدة أمور منها أن العارضات الشعرية ظاهرة ابداعية خارجة عن التقليد لأن الشاعر قد يصوغ الفكرة صياغة جديدة وهذا ليس تقليدا وقد ينظم قصائد ليس فها معارضات ويتجه للمعارضات لإثبات الذات.

أن الشعر بالعصر الأندلسي مر في فترة ازدهار لم يشهد العرب لها مثيل ويقصد بالشعر الأندلسي هو ذلك الشعر الذي كتب في العصر الأندلسي حيث يتفرد فنون شعرية معينة.

واتسم الشعر في ذلك العصر بالوضوح والاستعانة بالكلمات السهلة والمفهومة مرفوقة بالأسلوب الجميل السهل الفهم ولقد تنوعت أغراض الشعر الأندلسي بين الغزل والمديح والرثاء والوصف للأطلال والاستغاثة والاستصراخ وهذا سوف يكون موضوع بحثي.

[1] الأدب الأندلسي للدكتور منجد مصطفى بهجت، ص 274.
[2] نفس المرجع، ص 273/271.

ولقد اعتمدت في هذا العرض على منهجية محكمة تمثلت في مقدمة وعرض وخاتمة حيث ضم العرض المبحث الأول تعريف الاستغاثة ودوافعها في الشعر الأندلسي وأنواع الاستغاثة أما المبحث الثاني فتطرقت فيه إلى تعريف الاستصراخ والظواهر الموضوعية في شعر الاستصراخ والظواهر المجالية في شعر الاستصراخ أما السبب الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع هو حبنا للاطلاع على شعر الاستغاثة والاستصراخ في الأندلس ومعرفته أما الصعوبات التي واجهتني في بحثي هي قلة المراجع وعدم توفيقي في الوصول إليها.